مجرمان ... وقتيل في الطريق العام

محاكمة الكونت كاستل ماورت

أشار القاضي الى نقص اجراءات التحقيق الذي قام به البوليس عندما فحص القضية وقبل أن يصدر حكمه . . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون هذا الحكم قاضياً باعدام المتهم بعد أن قرر المحلفون أنه مذنب !

ولكن الرأى العام والصحافة لم يقبلا الاعتقاد بسهولة ـ كالمحلفين ـ بأن المتهم قتل سائق السيارة . . وكانت من نتيجة هياجهما أن استعمل وزير الداخلية حقه الذى خوله اياه القانون فى تأجيل تنفيذ عقوبة الاعدام ريثما تظهر أدلة جديدة تؤيد التهمة تأييداً لا يرقى اليه الشك .

ومضت الأيام . . ولم تظهر أدلة جديدة ...

لم تكن الساعة قد قاربت العاشرة من مساء يوم الأربعاء ٩ مايو عام ١٩٢٢ عندما شاهد المارة بشارع « آكرلان » بحى « بركستون » بلندن رجلين يتصارعان ويقتتلان فى عنف وشدة إلى جوار إحدى سيارات الأجرة .. وفى طريق جانبي هو طريق « باى ترى » . . وعلى بعد لا يزيد عن أربعين ياردة من مدخله !

وفجأة صاح أحد الرجلين : « أنقذونى . . أنه يقتلنى ! » وما لبث خصمه أن دفعه أرضاً ثم أطلق النار عليه مرتين ، وأردف ذلك بأن ألقى بالسلاح الغادر إلى الطريق . . وفى لمح البصر ولى هارباً مختفياً عن أنظار الكافة . .

ولكن الرجل المقهور الجريح تحامل على قدميه وهو فى حالة إعياء ظاهر . . واندفع صوب مدخل الطريق عن التقائه بالشارع . . مشيراً إلى الأهالى بالابتعاد والانفضاض ، إذ كان يخيل إليه أن خصمه يتبعه وأنه سيوالى إطلاق النار على الناس بلا حساب . . ولكنه لم يلبث أن ارتطم بالجدران وخر إلى الأرض صريعاً عندما وصل إلى الزاوية . . وبعد دقائق معدودة . . أسلم الروح ! . .

وهكذا . . كان فى هذا المشهد الغريب الذى جرى علناً وعلى رؤوس الأشهاد مصرع أحد سائقى التاكسى بلندن « جاكوب ديكى » . . وهو المصرع الذى حوكم « الكسندر كامبل ماسون » بتهمة اقترافه . . ولقى حتفه على المشنقة جزاء له ! !

أما هذا المشهد فقد استغرق حدوثه لحظات قليلة .. وما أن قدم رجال البوليس حتى كان القاتل ــ أياً كانت شخصيته ــ قد ولى الأدبار تماماً .. وكما كان من السهل الاهتداء إلى اسم القتيل ومهنته من العلامة المثبتة بصدره والأوراق الموجودة بملابسه . . فقد كان من الصعب معرفة أى شيء عن القاتل الذى ارتكب جريمته فى الظلام ، واختفى بين دياجيره كالشبح ! !

وقد كان على رجال البوليس أن يهتدوا إلى القاتل من الأشياء التى خلفها على مسرح الجريمة بعد ارتكابها .. أما هذه الأشياء فهى مسدس من ذى السبع طلقات ــ لم تتبق فيه سوى طلقة واحدة ــ و « أجنة » حديدية مغلفة بورقة ، وقفاز ملوث بالدم .. وعصا عادية ذات رأس مذهبة . .

وفى صباح يوم الجمعة التالى لتاريخ ارتكاب الحادث ظهرت صحف الصباح بانجلترا وهى تحمل صورة العصا المذهبة الرأس حتى يمكن لكل من يعرف شيئاً عن صاحبها أن يدلى بمعلوماته فى أقرب فرصة للبوليس . . وقد كانت النتيجة موفقة ، إذ قرر كثيرون بأن مثل هذه العصا يملكها عامل يدعى « أدى فيفيان » . . معروف جيداً لدى رجال البوليس من سوابقه العديدة .

وقبل أن يصبح اليوم التالى كان « أدى فيفيان » هو وعشيقته التى

تقيم معه بمسكنه فى شارع « تشارلوود » قد مثلا أمام رجال الأمن فى دائرة بوليس بركستون ليؤديا حساباً سريعاً . .

وفوجىء رجال البوليس بفيفيان وقد اعترف فوراً بملكيته للعصا . . ولكنه أردف ذلك الاعتراف بقوله إنه لم يكن يحمل هذه العصا فى مساء يوم الأربعاء الذى ارتكبت فيه جريمة القتل وأنها خرجت من حوزته قبل ذلك . . إذ كانت فى حوزة من يدعى « ماسون » ، وأنه لذلك لا بد وأن يكون مرتكب الحادث . . وقد أصر فيفيان على روايته هذه طوال مدة اعتقاله وكان التفصيل الذى أدلى به عند محاكمته يتلخص فيما يلى :

وفى يوم الأحد السابق على ارتكاب الجريمة فوجىء فيفيان بزيارة من ماسون إذ كان هذا الأخير مسجوناً فى اسكتلندا . . ولكنه علم منه بأن سبيله قد أخلى فى اليوم السابق . . ولما كانا ذا صداقة قديمة — هى فى الواقع زمالة فى السرقة والسطو — فقد أخذا يتجاذبان أطراف الحديث ويتذاكران الماضى . . إذ كانا قد حوكما معاً مؤخراً فى عام ١٩٢٢ بتهمة السرقة ؛ وبالرغم من أن العقوبة التى وقعت على فيفيان كانت أكثر شدة من تلك التى وقعت على ماسون نظراً لحمل الأول لمسدس فى أثناء السرقة . . فقد ظل الأخير فى السجن مدة أطول إذ نقل بعد إيفائه مدة الحبس فى انجلترا إلى اسكتلندا لتنفيذ حكم آخر كان قد صدر عليه قبل ذلك بالحبس لسرقة أخرى !

وقد قرر فيفيان أيضاً بأنه كان قد تلقى رسالة غامضة من ماسون قبيل الإفراج عنه ، يطلب إليه فيها أن يتصل بمن يدعى « نان » فى سبيل الحصول على مسدس منه .. ولكن فيفيان لم يتمكن من تقديم هذه الرسالة لمستجوبيه إذ تبين أنها فقدت منه .. وإن كان يذكر كل ما جاء بها ..

وفى صباح يوم الاثنين استقر الرأى على أن يقصد « ماسون » بنفسه لزيارة « نان » .. على أن يلتقى بعد ذلك بفيفيان فى شارع واترلو .. وقد تقابل معه بالفعل فى ذلك اليوم ووجد معه نان وقد أخبره ماسون عندذاك بأنه حصل من نان على المسدس الذى كان فى حاجة إليه .. وعند ما كانا يتناولا طعامهما معاً على انفراد بعد ذلك ، أخرج ماسون المسدس ومعه بعض الطلقات وقال لزميله فيفيان بأن لديه فكرة مختمرة ترمى إلى استكراء إحدى سيارات الأجرة كى يحصل على المال الذى يحمله قائدها بعد أن يرديه بطلقات مسدسه ! ! وبالرغم من معارضة فيفيان لزميله ، فقد أصر هذا على أن ينفذ ما انعقدت عليه نيته ونفسه ..

ومهما يكن من أمر فى هذا الشأن .. فقد اتفقا معاً على الذهاب فى يوم الثلاثاء إلى « كريستال بالاس » من ضواحى لندن بغية الاهتداء إلى منزل صالح للسطو والسرقة .. وذلك بعد أن حصلا على « أجنة » حديدية لتعينهما على تنفيذ خطتهما .. وقد ذهبا بالفعل إلى هنالك ورسما هذه الخطة وأرجآ تنفيذها إلى اليوم التالى : مساء « الأربعاء » .

وعندما قصد « ماسون » إلى « فيفيان » فى منزله قبيل الموعد المضروب للانتقال إلى الضاحية . وجده فى حالة سيئة من المرض الذى كان قد لازمه منذ الصباح نتيجة أكله طعاماً ملوثاً فى يوم سابق . . وهكذا أوقف مؤقتاً تنفيذ خطة السرقة . . وبارح « ماسون » منزل رفيقه بعد ما حمل معه عصاه ذات الرأس المذهبة ، و « الأجنة » ، والقفاز الخاص به ، ومصباح كهربائى .

وقبيل انتصاف الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء — مساء يوم الأربعاء — عاد ماسون إلى منزل « فيفيان » فى حالة يرثى لها . . إذ كانت ملابسه قد تمزقت وتلوثت بالدماء . . بينما كانت يده قد جرحت ، وقصّ على رفيقه كيف أنه أطلق النار على أحد سائقى التاكسى دون أن يؤدى ذلك إلى قتله . . وكيف هرب على الأثر مختفياً بين الأزقة وفى مسكن إحدى النساء ، إلى أن تمكن من أن يجد طريقه إلى منزل صديقه قبل أن يفتضح أمره .

وقد ساعد فيفيان زميله على إزالة آثار الحادث الفظيعة ، وسمح له بالمبيت فى مسكنه إذ لم يكن يملك شروى نقير . . ولكنه اقترح عليه فى اليوم التالى مغادرة المكان إذ أن فى وجوده فيه ، وفى بقائه به ، خطر عليهما معاً . . وهكذا غادر « ماسون » المنزل ولم يره « فيفيان » بعد ذلك .

هذه هى قصة فيفيان . . فما الذى قاله « ماسون » بعد القبض عليه والاهتداء إليه ؟ !

الواقع أن « ماسون » لم يقل شيئاً لرجال البوليس ، لأنه طلب أن يؤذن له بمحام بالمجان نظراً لفقره وعدم وجود مال معه ، فلم يسمح له بذلك . . فأراد أن يدلى بكل معلوماته عن الحادث أمام محكمة البوليس ، ولكن هذه نصحته بأن يلتزم الصمت إلى أن يمثل أمام محكمة الجنايات — المحكمة العليا — . ولهذا فإن « ماسون » ظل محتفظاً بين طيات نفسه بدفاعه إلى أن مثل بعد شهور من القبض عليه أمام القضاة — بعد ما كان زملاؤه قد جمعوا له بعض المال لدفعه إلى محام يوكل للدفاع عنه — . . وهنا لم يكن السجين فى حالة تسمح له بأن يحتفظ برباطة جأشه وبضبط أعصابه .

أما رواية « ماسون » — التى أدلى بها لأول مرة فى قفص الإتهام أمام القضاة والمحلفين — فهى تتلخص فى الآتى :

لقد اعترف بأنه التقى « بفيفيان » عقب عودته من اسكتلندا على أثر الإفراج عنه . . واتفق معه على كل ما رواه بشأن تحركاتهما وخططهما فى يومى الاثنين والثلاثاء السابقين لارتكاب الحادث ، ولكنه أنكر كل ما رواه « فيفيان » بشأن رغبته فى الحصول على « مسدس » سواء من « نان » أو من غيره ، إذ لم تكن لديه رغبة فى حمل سلاح على

الإطلاق . . بل إن « ماسون » قرر بأن « فيفيان » أراه المسدس فى صباح يوم الإثنين . . ولكنه — أى ماسون — ذكّر رفيقه بأمر حادثهما الأخير ، والذى ضبط فيه « فيفيان » ومعه مسدس ، وكيف أن ذلك كان سبباً فى مضاعفة العقوبة عند الحكم عليه . . كما أضاف مهدداً بأنه لن يعمل معه إذا رآه يحمل مسدساً مرة أخرى .

ولم ينكر « ماسون » أى شىء مما رواه « فيفيان » بشأن وضع خطة لسرقة أحد المنازل فى ضاحية « كريستال بالاس » ولكنه قال بأنه اتفق فى يوم الثلاثاء على أن يتقابل مع زميله فى أحد المشارب المجاورة لمحطة « فكتوريا » . . وبالفعل تقابل معه عندئذاك فى الموعد المتفق عليه . . وقد أخذا يتداولان قليلا فى أمر اتخاذ الاحتياط الواجب عمله حتى لا يقعا فريسة فى يد البوليس بعد السرقة . . فرأى « فيفيان » أن أصوب طريقة لذلك هى ركوب إحدى سيارات الأجرة دون إخطار سائقها بالأمر . . وبذلك يمكن أن يضمنا عدم اشتراكه فى المسروق أولا ، ويطمئنا إلى أن أحداً لن يوشى بهما ثانياً . . ولكن أى سائق يمكن أن يختاراه لهذه المهمة ؟ ! لقد أجاب « فيفيان » على ذلك بأنه يعرف سائقاً يصلح لهذا الغرض الذى كان على وشك سلوك طريقه ، اعتاد الوقوف بسيارته بقرب ميدان « بيكاديللى » واقترح أن يذهب إليه بمفرده حتى لا يرتاب فى أمرهما إذا قصدا إليه سوياً . . وغادر

« ماسون » على أن يلقاه بعد ذلك فى طريق « باى ترى » بحى بركستون فى موعد حدداه .

وقد وصف ماسون تحركاته بعد ذلك فقال : إنه اتخذ طريقه سيراً على الأقدام من فيكتوريا إلى منزل صديقه « نان » فى « وبر رو » بحى « لامبث » نظراً إلى عدم وجود مال معه . . وذلك رغبة فى الاقتراض من هذا الصديق . . ولكن تعبه ذهب هباء منثوراً . إذ لم يجد نان فى مسكنه . .

ولعله من المستغرب أن يدلى ماسون فى أقواله بأمر هذه الزيارة المفاجئة غير الهامة لصديقه « نان » ، إذ كان فى روايتها هلاكه . . فضلا عن أنها لو لم تكن قد ذكرت لكان هناك شك كبير فى إدانته ! فقد ثبت ثبوتاً تاماً أن المسافة بين فيكتوريا والمكان المضروب للالتقاء مع فيفيان فى « باى ترى » ببركستون لا يمكن أن تقطع إلا فى مدة تزيد عشرين دقيقة — إذا ما انعطف السائر إلى « وبر رو » فى لامبث كما فعل ماسون — عن الموعد المضروب والمحدد للاجتماع فى بركستون !

ولكن ماسون أصر على أنه بالرغم من ذلك فقد وصل إلى « باى ترى » فى الموعد تماماً . وهناك شاهد إحدى سيارات الأجرة تقترب منه ثم سمع صوت النفير . . فاعتقد أنه إشارة خاصة له ، وما لبثت السيارة أن أبطأت المسير . . وهنا حدث ما لم يكن يتوقع على الإطلاق!

فقد قفز شخص من السيارة . . وتبعه فى الحال سائقها الذى أسرع خلفه وأمسك به . . وفجأة سمع صوت النيران . . وعلى صوتها تعرف ماسون على فيفيان وتبين أنه الشخص الذى قفز من السيارة وأطلق النار .

وقد قرر ماسون أنه هرب من هذا المكان على أثر ذلك مذعوراً . . وأحس بأن فيفيان خلفه يلاحقه . . فأعانه على اجتياز بعض الحواجز وقد افترقا بعد ذلك هاربين ، إلا أنهما التقيا فى نفس المساء فى مسكن « فيفيان » بشارع شارلوود . . وهناك قصّ عليه هذا الزميل قصته ، فكشف له كيف أنه وجد السائق الذى كان يبحث عنه فى شارع شافتسبورى ، فركب معه السيارة وطلب منه أن يقوده إلى طريق « باى ترى » . . وما أن ذكر له فيفيان أنه مفلس ولا يحمل نقوداً حتى هدده السائق بأن يقوده مباشرة وفى التوّ إلى البوليس . . وهنا تذكر فيفيان أن فى ذلك القضاء عليه ، لأنه كان يحمل « الأجنة » والمسدس . . فحاول الفرار قفزاً من التاكسى ، ولكن السائق التعيس لاحقه وكاد يقبض عليه تماما ، ولذلك فقد اضطر إلى إطلاق النار عليه لكى يتمكن من الهرب من هذا المأزق الخطير ! ! .

وقد كان على القضاة والمحلفين أن يفاضلوا بين الروايتين وأن يختاروا أقواها . . فيبرئوا صاحبها . . وقد كانت رواية فيفيان ولا شك هى الظاهرة القوة فى نظر هؤلاء . . إذ أن صاحبها لم يكن هو المقدم

للمحاكمة .. كما وأنه لم يجد قيد أنملة عنها . . ولم يتمكن زميله من تجريحه فى شىء بشأنها . . بينما كانت رواية السجين المتهم ماسون قابلة لكل تجريح ، وعلى الخصوص فيما يتعلق بشأن رحلته من فيكتوريا إلى طريق « باى ترى » ببركستون فى الليلة المشئومة ! ولقد كان كذبه فى هذا الشأن كافياً لأن يقسو المحلفين فى الحكم عليه .. وميسراً لهم الاعتقاد بأنه لم يتقابل فى تلك الليلة مع فيفيان الذى كان يشكو المرض فى فراشه ! . .

ولقد لازم ماسون سوء الحظ فى أثناء محاكمته . . بل قل . . عدم التوفيق . . لأنه بدا فى قفص الاتهام وعند أداء الشهادة فى حالة سيئة من الاضطراب والقلق وعدم المقدرة على ضبط النفس ! ولو كان قد قال أنه قطع الطريق بين فيكتوريا وبركستون بإحدى وسائل النقل لقاء دريهمات معدودة ، لكان من الأبرياء أمام القضاء . . بل لو أنه قال أنه قطع هذا الطريق عبر قنطرة فوكسهول وطريقها لبرئت ساحته أيضاً . . ولكنه اختار القول بأنه انحرف إلى « وبردو » فى « لامبث » ليزور « نان » . . وأصر على هذا القول . . فوجد القضاة أن هناك استحالة مادية فى الزمن الذى قرره السجين لقطع الطريق الذى رسمه وقال أنه سلكه . . ولم يروا أن هناك ما يدعو لتجاهل هذه الاستحالة . . فقضوا بالمنطق ضد المتهم البائس ! . .

ولم يعدم الاتهام أن يجد شهوداً يسيئون إلى مركز ماسون . . إذ استقدم المرأة التى كانت تعيش مع فيفيان لتشهد بأنها رأت ماسون إلى جوار فراش صديقها فى مساء يوم الأربعاء وهو يحمل فى يده العصا ذات الرأس الذهبية . . ولكنها لم تره وهو يغادر المكان بها . . ولقد تمكن الدفاع عن المتهم من أن يجرح شهادتها لسبب بسيط واحد وهو أنها على صلة وثيقة بفيفيان ومن المصلحة أن تجعله يفلت من الاتهام .

وفى الوقت نفسه فإن « نان » قد أنكر ما نسبه إليه فيفيان من أنه أعطى مسدساً إلى ماسون . . أو حتى أنه رأى أى الرجلين فى مساء يوم الإثنين . . إلا أن زوجة « نان » قررت بأنها سمعت صوت ماسون خارج باب مسكنها إذ أتى سائلا عن زوجها ولكنها لم تحادثه بل أجابت طرقه ابنتها الصغيرة التى عجزت عن تأدية أية شهادة أمام المحكمة !

ولقد حاول الدفاع عن المتهم فى سبيل إنقاذ حياته الابتعاد عن كل هذه الوقائع وإدخال المنطق ووزن الأمور فى تقدير الحكم على المتهم . . فقال أنه لو سلم جدلا بأن هذا المتهم كان قد عزم على سرقة أحد سائقى التاكسى — أو حتى قتله إذا لزم الأمر — فأنه لا يعقل منطقاً أن يختار الطريقة التى ارتكب الحادث بها . . فالراغب فى الاعتداء على سائق سيارة لا يمكن إطلاقاً أن يطلب من هذا السائق السير فى وسط المدينة ، وأن يختار مكاناً آهلا بالمارة محاطاً بالمنازل والمبانى الكبيرة

مثل المكان الذى حدث فيه الاعتداء .. بل أنه لو أراد ارتكاب جريمته التى صمم عليها لاختار مكاناً متطرفاً أو بعيداً عن العيان حتى يكون فى مأمن من القبض والاعتقال ، وحتى يسهل عليه الفرار بعد أن يقترف فعلته ! . أما أن يسىء الاختيار إلى الحد الذى بدا فى هذا الحادث فهذا أمر لا يمكن تعقله أو قبوله بأى حال من الأحوال !

والحق أن هذا الدفاع سليم .. ولو لم يكن ماسون قد أخطأ أو كذب فى تقرير بعض الماديات والوقائع .. لكان على القليل قد أشاع فى أذهان المحلفين بأن شبهة ارتكابه الجريمة أمر مشكوك فيه .. ولكان فى عداد الناجين من الحكم عليه فى قسوة .. ولكن .. ألم نقل بأنه كان عديم التوفيق ؟ !

ولقد هاجم الدفاع إجراءات البوليس الأولية فقال بأنها لم تكن مستوفاة .. فحمل عليه لأنه لم يقم بأى بحث فنى بشأن الدماء التى وجدت بملابس ماسون للتقرير بما إذا كانت من فصيلة دم القتيل أو من فصيلة دم المتهم الذى قال بأنها راجعة إلى وجود جرح بيده أو لسبب آخر .. كما وأن البوليس لم يسأل السكان المحيطين بمكان الحادث حتى يمكن أن يعلم بالضبط من الشخص الذى هرب عقب الحادث وأوصافه .. وهل كان الهارب شخص أو شخصان .. هذا إلى أن فى عدم وجود آثار لبصمات الأصابع سواء على المسدس أو على

« الأجنة » ما يثير الالتفات ، إذ لا ريب أن بصمات كانت عليهما . . ولكنها طمست وضاعت معالمها لإهمال البوليس وعدم فحصها عقب الحادث مباشرة !!

والحق أن القاضى أشار إلى نقص إجراءات البوليس وذلك عندما لخص القضية قبل أن يصدر الحكم . . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون حكمه قاضياً بإعدام ماسون بعد أن قرر المحلفون بأنه مذنب . .

وكان نصيب الاستئناف الذى رفعه المتهم عن الحكم الرفض أيضا . . إذ لم يتبين وجود أى خطأ فى إجراءات المحاكمة التى كان يقودها القاضى « ريجبى » . .

ولكن الرأى العام والصحافة لم يقبلا الاعتقاد بسهولة — كالمحلفين — بأن ماسون قد قتل فعلا جاكوب ديكى . . وكان من نتيجة هياجهما وثورتهما التقليدية فى مثل هذه القضايا ، أن استعمل وزير الداخلية البريطانية إذ ذاك « اللورد بريدجمان » حقه الذى خوله إياه القانون فى تأجيل تنفيذ عقوبة الإعدام على المتهم ريثما تظهر بعض أدلة جديدة يمكن أن تكشف الستار عن المجرم الحقيق . . أو تؤيد التهمة تأييداً لا يرتقى إليه الشك على المتهم أو غيره . . وقد قوبل قرار الوزير بالارتياح .

ومضت الأيام . . ولم تظهر أية أدلة جديدة . . وبقيت هذه القضية كغيرها من عديد القضايا . . حائرة بين الإتهام . . والدفاع . . والقضاء ! .